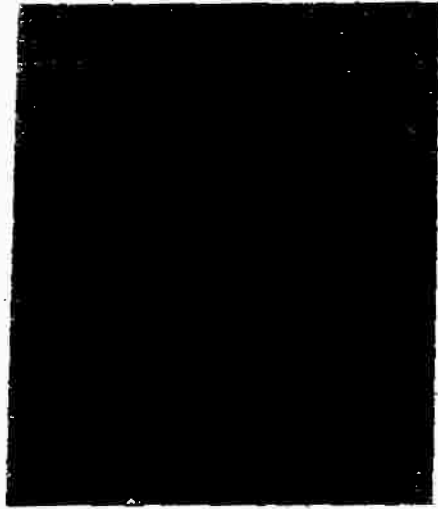


البحث عن غيتك

للاستاذ عباس محمود العقاد



الغريون اليوم
معنيون بالبحث في
مسائل الشرق من
جوانبه كافة : من
جانب السياسة ،
لأن نهضة شعوبه
تضطرهم إلى
حساب حساباته
والمدول عن خطة
استغلاله والسيطرة

عليه ؛ ومن جانب الدين ، لأنهم حارون في شئونهم الروحية
يلتمسون الهداية من مهبط الأديان ، أو يقابلون بين سلطان
الدين عليه وسلطان الآراء الحديثة عليهم ؛ ومن جانب التجارة ،
لأن العلاقات التجارية بين الدول الكبرى لا تستغنى عن أسواق
الشرق ومناجم الثروة فيه ؛ ومن جانب السياحة والرحلة واستكشاف
مواقع التاريخ القديم ، وكل جانب تتحول إليه عناية الباحثين في
مسألة عامة

ومن الباحثين الصحفيين الشغوفين بالمسائل الروحية « روم
لانداو » صاحب كتاب « الله حجة منامراتي » ، وصاحب هذا
الكتاب الذي عنوانه « البحث عن غد » ، وموضوعه استطلاع
أحوال الشرق القريب من جانب الدين والنهضة النفسية إن صح
أن نطلق عليها هذا الاسم تمييزاً لها من النهضة العلمية البحث
والنهضة الصناعية الاجتماعية التي تقابل نظيرتها في الأقطار الغربية
حضر إلى مصر وتحدث فيها إلى رجالات الفكر والسياسة
ولخص هذه الأحاديث في كتابه ، وسنعرض لها جميعاً ، ونبدأ بنقل
حديثه مع رئيسي الجامعتين الأزهرية والمصرية ، حيث قال بعد
تمهيد طويل للحديث مع صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ

في مهده ، ورجاء أن يجعله متنفساً في أرض حرة تحضنه ، وأن يجد
له قوة تعينه ، حتى يحين الأجل المضروب ، ولكل أجل كتاب
هاجر وتم له ما أراد ، إذ فتح الله له فتحاً ميبناً وأغر دينه
وأعلى كلمته ونصر جنته ، ودانت له تلك القبائل التي ناصبته
المداء ، ولم يرض إلا بعد أن رضى الحق وانتصر ، وبعد أن
انتصر غفر . فهو خادم الحق وأمينه ، وناصره ومعينه ، لا يرى أن
نفسه له ، ولا أن أهله له ، ولا أن شيئاً في الحياة له ، بل كل شيء
عنده وفي مقدوره للحق وفي سبيل الحق . ولم يكن السيف في
يده إلا مشروط الجراح يتر به ما فسد من الأعضاء ، ولم تكن الأستة
إلا الأبر التي يزل بها الطبيب مكان الداء ليخرج أذاه . وليس
بدعاً من الحوادث حادث الهجرة وما لابسها إذا تعرض على مقاييس
العقول واعتبر الناس بسنن الاجتماع وهدية . ولا تزال هذه
السنن مستمرة في هذه الحياة ؛ ولا زالت تعمل عملها وتحدث
أثرها . والمائل من يعتبر . « قد خلت من قبلكم سنن فسبوا
في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الكاذبين »

وقد سار النبي صلى الله عليه وسلم على هذه السنن ، وامتاز
بأكل ما امتاز به الأنبياء وكبار الدعاة إلى الحق من اليقظة والحكمة ،
وتخير الأوقات والأمكنة ، واختيار الأصحاب والأنصار . ولم ير
الاكتفاء بالحجة والبرهان في مواضع لا تنفع فيها الحجة ولا يفتن
البرهان ، بل أعمل الحيلة وأدار الرأي وطلب القوة في مظانها .
لذلك كانت الهجرة ، وبذلك أدرك ما أراد . فظهر الإسلام
وبسط ظله على أم قوية كثيرة المدد والمدد ، وحوّل أولئك
الأميين إلى أئمة هدى وولاء عدل وقضاء نفس وساسة يفخر
التاريخ بهم ، وعلماء تروى آثارهم ويتحدث الناس بطبيب أخبارهم ،
وأداة للإنسانية وجروحها تنفجر منهم ينابيع الرحمة ويضمون
نظم الإصلاح وقواعد الاجتماع . رفعوا قدر العلم بعد أن أنكروه ،
وجعلوا العقل هادياً ومرشداً ، والقرآن إماماً . لم يخونوا أمانات
الله ورسوله فأحيى الله حياة طيبة ، وأعد لهم مكان صدق عند
ملك مقتدر

« يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما
يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون .
يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم
وأنتم تعلمون »

محمد مصطفى المراغي

مصطفى المراغى وقد زاره في بيته بجولان :

« سألتني : هل تبحث عن المسائل الدينية أو مسائل ما وراء الطبيعة ؟ ولما كان الفارق بين هذه وتلك ليس بالفارق العظيم في نظري أجبت بـ « من الروغان : كلاهما ؛ إلا أنني أشد عناية بما وراء الطبيعة »

فقال الشيخ العلامة : قليلة المحصول ، قليلة المحصول جداً وكانت لهذه الكلمة دلالتها ، لأنها تشير إلى طبيعة الإسلام العملية كما تمثلت في أكبر رعاته بين المصريين

ومع على بمض العلم بأساليب المناقشة الشرقية لاحظت على الأستاذ المراغى أنه يقتضى عن الجواب في كثير من الأحيان ، وأن أسلوبه أسلوب رجال السياسة ؛ وناهيك بهم إذ يكونون شرقيين مع ذلك ، وعلى خبرة بالمواقف المعضلة ، وحرص من التورط في التصريح ، فهو في البيئة الغالبة على فقهاء الإسلام لاصراء وعدت أقول : لقد سمعت أن الشبان عندكم ينجحون إلى نزعات « التفكير الحر » ويحاولون أن يزيدوا القرابة بين الدين والعلم . فهل صحيح ما سمعت ؟

فقال الشيخ : « لا أظن الشبان المصريين أقل تديناً اليوم من أمس ؛ إذ ليس في القرآن ما يعارض الحقائق العلمية ، ولا تناقض بينهما في شيء »

وأردت أن أخوض فيما هو أصرح وأجرأ مما تقدم فسألت : ألا ترى أن العنصر الروحي — أو النبي المتصل بما وراء الطبيعة — هو أهم العناصر في الديانات ؟

قال الشيخ في سكينة ولطف : من ذا الذي يعلم كنه الله وكنه الروح ؟ إن بعض أستاذتنا يتحدثون عن المادة كأنها حقيقة ، وبعضهم يتحدثون عنها كأنها وهم أو فرض مفروض ؛ وليس من يعلم الصواب علم اليقين ، فإن القرآن لا يفصل بين القولين ، ولكنه يحكم حكمه في أمور شتى كأموال الزواج والوارث والماملات

فسألت : وماذا تقولون في قبول العلماء لنظرية قدم المادة ؟ ولا ريب أن الأستاذ المراغى لم يكن يتوقع قط أنني علمت شيئاً عن هذه القضية ، إلا أنه لم يظهر الدهشة ، ولم يد عليه إلا قليل من مفارقة السكينة التي لزمته حتى الساعة كأنها قناع لإخفاء ما وراءها من قلة الاكتراث . فقد انبمعت الحياة من خلالها وقال :

« إنك لم تقع على الخبر الصحيح في هذه القضية ، فليس هناك إلا أن عالمك كتب رسالته في علم الأصول ليعبر فيها عن رأيه وما انتهى إليه اجتهاده »

فبادرت قائلاً : ألم يكن صاحب الفضيلة وأعوانه من العلماء مرجع الامتحان في هذه القضية ؟

فابتسم الشيخ المراغى وهو يقول : « إن رأيك كهذا قد كان يحسب من الزندقة قبل خمسين سنة ، وما كان أحد ليحجر على تقديمه في جامعة إسلامية . فاعظم التغير في أطوار الزمان ! نحن اليوم أدنى إلى الحرية والسباحة »

واستطرد الكاتب إلى أسئلة وأجوبة من هذا القبيل ، انتهى منها إلى المذاهب الاجتماعية والشطط في الدعوات الفكرية ؛ وسجل رأى الشيخ الأكبر أن الوقاية من جميع ذلك إنما هي الدين وتعليم الإسلام على أصوله

أما حديثه مع صاحب المال أحمد لطفى السيد باشا فقد مهد له بوصف الأستاذ وملابسه الإفرنجية الأنيقة ومعيشته المصرية ، ثم استمته بهذا السؤال :

« ما هي أكبر رسالة ثقافية قامت مصر بأدائها في وأبكم خلال القرون الأربعة التي خضعت فيها للحكومة التركية ؟ »

فأجاب وأصابه النجيلة تعبت بحبات السبحة العاجية : « إنما هي عمل الجامع الأزهر في جميع الكتب الفقهية »

فقلت : ألا ترون أن حصر رسالة ثقافية تؤديها الأمة في عمل واحد لا يتجاوز جمع الموضوعات الفقهية خليق أن يشير إلى شيء من ضيق النطاق ؟

فرفع لطفى باشا حاجبيه هنيهة واضطرنى بذلك أن أعقب على ما أسلفت مستدركا :

« إن كثيراً من الغربيين يزعمون أن تفكير العرب تفكير « تجریدی » ... فإذا كانت البقرة القومية لا تخرج في مدى القرون الأربعة ثمرات ثقافية غير الفقه والشريعة فهذا الزعم ليس بالمخالف كل المخالفة للإنصاف فيما يلوح لأول نظرة »

فسألتني : ماذا تعني بالتفكير التجريدي ؟

قلت : إن التفكير الانجليزي مثلاً واقى مجار للحوادث ، لأنه يتناول كل حادثة كما تعرض في حينها ، وهو من ثم تقيض

الفروض النظرية والمباحث الجدلية . أما تفكير العرب فهو رهن بالقواعد الرسومية والنظريات المألوفة ؛ ويلوح عليه أنه شبيه بهندسة البناء العربية ، لا يحتوى صورة من صورة الحياة الماثلة في بنية الإنسان وملامح وجهه ، وكل ما فيه هندسة وتناسق خطوط ... »

قال لطفي باشا وهو يشفع كلامه بابتسامة معتدرة :

« آسف لأننى لا أستطيع مجاراتك في حكمك . قالدى بيدولى أن الفكر العربى أشد إيماناً في الواقعيات من الفكر الأوربي . وهذه شريعتنا الدينية التي استشهدت بها على نزعته التجريدية . تناول شؤون الحياة اليومية ولا تقتصر على مسائل اللاهوت والأخلاق كما هو الحال في الشريعة المسيحية ؛ وهي تفيض بالوصايا في أمور المعيشة والزواج والميراث وما شاكل ذلك . وأحسب أننا أقرب إلى معرفة الحقيقة حين ندرس « نخلة » الأمة كما تمثل في ديانتها . فكيف ترى « النخلة المسيحية » تصور السماء والفردوس ؟ إن سماء المسيحيين هي نعيم غير ذى أشكال ، أو هي شيء لا يسمعك أن تراه ولا تقع عليه العيون ، بل شيء لا يسمعك أن تحيط به في الخيال . أما المسلمون فكيف تراهم يتخيلون السماء ؟ إنها دار حقيقة فيها اللبث والعدل والمسجد ، وفيها الأزهار والأشجار والخور الفين ، وهي كلها حقائق ومشاهدات ... أفليس هناك معنى ملحوظ لاتفاق النخلة الدينية بين المسيحيين والمسلمين في «ميدان سلبى» حين يتكلمون عن الجحيم ؟ نفى هذا الميدان ترمم المسيحية نفسها صورة مشهودة هي صورة النيران والنقط العالي وعذاب الأجساد

قال الكاتب : فأحججت عن الجهر بملاحظة سنحت لي تلك اللحظة ، وخوفاها أن البالغة في تمثيل الخيال تفرن عادة بالقصور في ملكة البناء والانشاء الواقعية ، وآثرت أن أسأل :

ألا تزال الديانة قوة فعالة في الحياة المصرية ؟

فأجابني الباشا : « فعالة على الأرجح في عالم الاسلام أعظم من فعلها في عالم المسيحية ، لأن شرائعنا كلها قائمة على القرآن ؛ ومن العسير في البلاد الاسلامية أن تفصل بين الدين والحياة اليومية »

قلت : على أننى قد أخبرت أن الشبان المصريين يهجرون

عقائد آبائهم جنوباً منهم إلى البدع الغربية
قال : أعجب لو صح ذلك ... فلما هم لا يفشون المساجد ولا يشهدون صلوات الجمع ، ولكنهم على الجملة متدينون ، وربما كان منهم أناس من الدارسين للفلاسفة الغربيين قد ألدوا في الدين إلا أنهم شذوذ قليل

فسألته : أبغى المصريون عناية ما بما وراء الطبيعة أو بالأسرار الخفية والسبعات الصوفية ؟

قال : « ذلك نادر في « فلسفتنا الحاضرة » . غير أن فلسفتنا وأدبنا لا يزالان في مفتتح الحياة ؛ ويبنى ألا تنسى أن أربعة قرون من الحكم التركي قد عطلت ثقافتنا وتركنا نحاول من جديد . فانتقلت إلى حديث الجامعة العربية وسألته : « وهل بمد انتضاء السيادة التركية أو السيادة الانجليزية يهتم المصريون بالجامعة العربية ؟

فرد الباشا جازماً : أما سياسياً فلا ، لأن الفوارق بين الشعوب العربية المختلفة جد كبيرة ؛ أما من الوجهة الثقافية فهي ممكنة ، وهي على ازدياد في جوانب الشرق الأدنى ؛ ولكنها ليست بالسياسية ، لأن الجامعة العربية من حيث هي نزعاً سياسية اختراع نجح في الصحافة الانجليزية على ما أذكر ، ولا يحصرني اسم صاحبه وإن كنت أرجح أنه مراسل للتميس كان يرسلها من النمسا قبل أربعين سنة

ونقل الحديث في بعض الموضوعات العربية ثم سأل الكاتب : ما ظنك في حقيقة ما يقال من أن الوطنية المصرية توحد ما بين المصريين وسائر العالم ، وتجتهد في إبدال كل مصرى بكل أجنبي ؟ أتؤمن بإمكان هذه العزلة ؟

قال الباشا : الحق أننى لا أؤمن بذلك ؛ ولعل محدثك قد أخطأوا التقدير ، فإن الوطنية عندنا لا تجور على الثقافة . ونحن إذا اكتفينا بمن هم عندنا من الأساتذة الأجانب فسبب ذلك قلة المال . إن الأستاذ الانجليزي يكلفنا من ثمنائنا إلى تسمائنا جنيه في العام ، وليس ذلك باليسور لنا إلا فيما ندر

وانتهى الحديث بمد تعقيب موجز في هذا الموضوع ، وسنعود إلى سائر الأحاديث وإلى التعقيب عليها في مقال تال

عباس محمود العقاد